

## مطروز أو محاولة تأسيس المشتت

ثرىا الفيلي-طولون

قال: اكتبي عن الهوية ولتكن الكتابة بالعربية.

قلت: ما أنا بكاتبة

قال: اكتبي فثقافتنا تحتضر.. عار علينا أن نقف صامتين.

كيف أكتب عن شيء لا أدريه؟ أكره كلمة هوية رغم أن هذه الكلمة باللغة العربية تحتوي على ما يشير إلى الآخر: هو- يه أي أنها تحفزنا على الانفتاح، بينما تبتدى كلمة *identité* بما يشير للقرين *id*.

والغريب أننا نسينا كيف أن الغرابة تسكننا وقد أصبحنا غرباء عن أنفسنا، لا نقوى على قبول الآخر فينا. تشبثنا بأجزاء من تاريخنا الأمد وتناسينا للباقي، إصرارنا على الكتمان والتناسي جعل حلم الوحدة ينقلب توخداً عدوانياً.

كنا قبائل فأصبحنا أمة ثم قومية لها لغة للكتابة وأخريات للكلام، ولا نزال نبحث عن وسيلة للحوار. وفي بحثنا هذا ظننا أن اللغات الأخرى قد تهدد تلك التي تجمعنا، فدخلنا في حرب بين اللغات التي نتكلمها وتلك التي خصصناها للكتابة، فأصبحنا بُكماً محاصرين بين لغة تتحجر وأخريات تخجل من الورق وتكتفي بالتأوه في الأغاني أوبالغضب في الأسواق.

أقول هذا بلغتي المتحجرة و قد لفتها الغربة بلباس عجمي، فتموّهت حتى كدت لا أدركها.

ها أنا إذن ألمم أجنات ذاتي المبعثرة بين ما هو عربي ومغربي، بربري وزنجي، فرنسي واسباني.. تراودني لغاتي كلها فيتلعثم لساني و ينشق شطرين. تتسابق الصور في مخيلتي بين عنف الحاضر وظلم الماضي، وأتذكر كلمات محمود درويش فأتأبط نردي.

ليس لي أن أتكلم عن هوية الآخرين. من أكون حتى أقرر وأنظر في ماهية الهوية..

ربما يغتاظ صديقي ويفقد صبره: سيقولون له: هكذا هم المغاربيون، اختلطت عليهم الأمور بين وابل وبابل كالغراب الذي ود أن يقلد اليمامة...

ما للغراب إذن إلا أن يستغرب لعجزه عن التمويه والتلبس. لعل في تلك الغرابة نعمة، لعل في تعثر الغراب ما يشير إلى رفضه للانصهار.

ثم... ما بي أعيد اجترار هذه الخزعبلات القديمة؟ ألم يقل المستشرقون أننا \_ نحن المغاربة \_ مشاركة؟ بل ذهب أحدهم<sup>1</sup> إلى أننا كلنا مستشرقون. ولقد دونوا ذلك في قواميس ونظروا بكل جدية في محاضرات ومدونات على الانترنت، وأعيدت الطبعة تلو الأخرى، وأدرج كاتب ياسين في القاموس الخاص بالمستشرقين الكاتيبين باللغة الفرنسية وأوصدت عليه الدفتان.

هكذا إذن، أصبحت كلمة هوية تحن في نظر البعض إلى الجوهرية *essentialisme* ، كلمة تحمل في ثناياها العصبية و الإلغاء للآخر. غير أن التاريخ عنيد، يرفض الرضوخ للأطوبيات التي تحاول إعادة التنظير المسبق لعولمة لم تعد تعترف إلا بتجزئة السوق و تجديد الوفاء و الولاية حسب المصلحة الشخصية.

أعود إذا إلى دعوة صديقي لأبدي وجهة نظري في إمكانية تأسيس هوية ثقافية تجمعنا، و أدرك ساعتها أن أمين على حق عندما يغضب من ما قرأه فيما كتبت أعلاه، و في خوفه من تشبث بجهوية قد تفرق أكثر ما تجمع. سأحاول إذا تحديد جمع المتكلم هذا الذي نحن بصدده: "نحن". ماذا نقصد عندما نستعمل صيغة الجمع هذه؟

أنحن عرب؟

أدرك أنه ثمة نوع من الاستفزاز عندما أتجزأ على السؤال. ولعل ما يشفع لي هو ما حالت إليه العروبة بعدما كانت حلما لا يستثني المسلم من غيره و يسلم فقط بلغة واحدة للتواصل. إلا أن هذه اللغة سرعان ما أضحت ذريعة لمحو لغات أخرى يقال عنها "عامية" ثم أصبحت اللغة نفسها لصيقة بديانة واحدة ترفض لغيرها حق الانتماء.

وهنا ترجع بنا الذاكرة من جديد إلى حقب من التاريخ عرفت طوائف و لغات شتى، و تميز إذاك أناس آمنوا بالتعددية قبلما نسميها هكذا. لا زالت أسماء ابن رشد و موسى بن ميمون و حنين بن اسحق العبادي و غيرهم تتردد. ليست لي دراية جيدة بكتابات كل هؤلاء و لكن يكفينا حجة أن أسماءهم خلدها التاريخ لأن رأيهم تعدت الطائفية و الملة و القبيلة إلى ما يمكن أن يخدم الإنسان و قد أغنى كل منهم التراث العالمي بثقافته و معرفته.

و الآن و عالمنا يتصعد يوميا تحت شتى الضغوطات بين ما يسمى ثورات أو انتفاضات يلح علينا سؤال واحد، ليس هو "من نحن" بل ماذا نريد؟

<sup>1</sup> François Pouillon (dir.), *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, éd. Kathala, 2008.

هل نستهدف تغيير النظام و رأس النظام فقط أم نريد تغيير المنظومة كلها؟ هناك من يدعي أن هناك أولويات و أن حقوق الأقليات مثلا أو وضعية المرأة ليست إلا مشاكل ثانوية لا يصلح التحدث عنها الآن و نحن بصدد مشاغل أخرى أكثر تعقدا و أخرى بالاهتمام.

أشعر بحساسية بالغة أمام هذه التراتبية التي تحدد الأولويات و أشك في صدقها، و لا زلت أنتظر تلك اللحظة التاريخية الي سيتم فيها الاعلان عن إعادة تشكيل العقل العربي حتى نستطيع تأليف التشتت و تنظيم الاختلاف. فلقد خلقنا شعوبا و طوائف و لكن تعارفنا موضوع اليوم على المحك.

غير أنني أشعر ببعض التفاؤل عندما أقرأ نصا لشريف الرفاعي أو مقالة لسلام الكواكبي...